التحليل النفسي

ونظرية فرويد

للدكتور ابراهيم ناجي

عبء سرّ ثقيل

ان دراسة التحليل النفسي على جانب عظيم من خطر الشأن لاسباب متعددة . فهي اولاً دراسة مبادىء جديدة تكاد تقلب علوم النفس والاحياء والاجتماع رأساً على عقب . وثانياً انها على صلة وثيقة بحياة فرويد مبدعها ، وهو رجل جريء الرأي ، دقيق الاستنتاج ، سديد القصد في البحث عن الحقيقة . ثم ان الكاتب الالماني الكبير ستيفان زفيج أفرد فصولاً في كتابه « الشفاء بالروح » لدراسة موضوع المسائل الجنسية وهو من اكثر الموضوعات العصرية استرعاء للعناية ، فدافع دفاعاً بليغاً عن التحليل النفسي ثم قابل مقابلة شائقة بين ادب النفس في القرنين التاسع عشر والعشرين

كانت المسائل الجنسية من اقدم الازمان من المسائل التي لا يباح بحثها علناً . فقد كان القرن التاسع عشر قرن مكتشفات ومخترعات عظيمة في العلوم النظرية والتطبيقية . بل كان عصر غرور علمي ، لانهُ اذا كانت الطبيعة على جبروتها قد انحنت امام قوة الذكاء البشري ، فقد كان مما تقتضيه الطبيعة والمنطق ان ينظر الناس باحتقار الى الرغبة الجنسية ، ذلك الوحش الكامن في دم الانسان ! وكذلك حمل الانسان مدفوعاً بالغرور والكبرياء على السؤال : كيف نعالج هذا الوحش الضاري ؟ انقتله ونبيده ؟ فكان الجواب : كلاَّ : ليعمل بمت غمًّا واحتقاراً . وكانت النتيجة ان مؤامرة واسعة النطاق دبّرت لهذا الغرض اشتركت فيها المدارس والصحف والجرائد والعلماء والقسوس والاطباء . حتى شاركو Charcot عالم الاعصاب العظيم الذي عالج حالات الهستيريا

---

(١) ترجمة محاضرة باللغة الانكليزية القاها الدكتور ابراهيم ناجي في نادي الاطباء بالقاهرة

الشديدة وكان عالماً بان اساسها الكبت الجنسي ، اكثر بان يمس بمكتشفاته هماً في آذان غير بصير من ملازميه

وكذلك اصبح المراهقون يروحون ويجيئون وعلى عواتقهم عبء سرّ ثقيل : واضحى مرضى الاعصاب منهم يذهبون الى مستشفيات الامراض العقلية ، او ينتحرون او يعمدون الى الاجرام. وكان النصح الوحيد الذي يسدى اليهم ، ان يحسنوا السلوك ، وذلك لان احداً لم يفهمهم على حقيقتهم وهي أنهم ضحايا حاجات ملحّة ، واعباء جديدة ، كدّستها على كواهلهم الحضارة الحديثة والحياة المعقدة التي تلازمها . وقد كانت هذه المؤامرة مدبّرة ضدّ ذلك الوحش الجنسي القاري. ولكن الوحش لم يمت غمًّا ولا جوعاً ، ولا بدت عليه علامات الضعف . بل على الضدّ من ذلك كان الجوع والموت من نصيب المصابين في اعصابهم

العصر والرجل

الاّ ان الحياة تنجب ، في كل ازمة او معضلة تواجهها الحضارة ، رجلاً يفهمها اولاً ثم يستجيب لداعيها . وفي اواخر القرن التاسع عشر كان فرويد وصديقهُ بروير طبيبين ناشئين يتلقيان على شاركو باريس . وهنهُ أخذا درسهما الاول . فالنساء المصابات بالهستيريا ، كنّ اذا نوّمن تنويماً مغناطيسيًّا يسردنَ حوادث ماضيهنّ فظهر ان في ماضي كلٍّ منهنّ ما يتعلّق بالحياة الجنسية دائماً . وكنّ بعد هذا الافشاء ينلنَ البرء المطلوب . ومضى بروير في هذا الضرب من العلاج ، الى أن علقت احدى النساء اللواتي يعالجهنّ بحبه في أحد الايام حتى ضايقتهُ ، فتخلى عن عمله وترك ما دوّنهُ من مذكرات لصديقه فرويد

وكان فرويد قد تعلم من برنهيم ان عامة الناس ، يمكن حملها بشيء من المداورة والتحايل والاقناع على التحدث عن ماضيها ، كأن أحدها يتحدّث وهو منوّم تنويماً مغنطيسيًّا . فعمد الى أسلوب ، من العلاج دعاهُ أولاً « علاج الحديث » ثم غير اسمهُ ، فجعله « التداعي المطلق او الحرّ » وذلك لانهُ كان يعلم ان فريقاً من الناس لا يمكن تنويمهُ ، وآخر يتجه بعد الشفاء الظاهر الى منوّمه فيقع في هواه او يبغضهُ رغماً عنهُ

ونحن عندما نراجع نظرية فرويد نجد فيها كثيراً مما لا نسلم به او مما يصدمنا في معتقداتنا وتقاليدنا ، ولكن فيها ايضاً ما هو صحيح لا يسعنا انكاره . وفرويد نفسهُ لا يزعم انهُ مصلح ، بل يقول انهُ عالمٌ يراقب ويدوّن ما يرى ويعتمد على المنطق الصحيح ، ويطلق على الاشياء أسماءها الحقيقية دون ما مواربة ، ويضع اصبعهُ على أصل الشرّ . فهو في نظر علم النفس اول من سدّ الثغرات التي بدت فيه قبل ان رممها الفلسفة . فقد بنى مذهبهُ النفسي على أساس علمي .

وكان أول من أقام شأناً كبيراً للعقل الباطن الذي كان يعرف قبل عهده بالعقل القريب من الوعي Co-conscious او الشبيه به sub-conscious وكان يوصف بأنهُ خزانة تجمعت فيها الذكريات وآثار الاختبارات السابقة . الاَّ ان فرويد أقام الوزن الصحيح لمكانة العقل الباطن، ووضح القوى المتناضلة فيه ، وما يتصف به من مقاومة لمعرفة الحقائق الداخلية او الخارجية عنهُ

فالسيكولوجيا التي أنشأها فرويد علم ديناميّ (Dynamic) ، قائم على القوى المتناضلة ، محكومة بالعلة والمعلول . فليس فيهِ ما هو وليد الاتفاق والمصادفة . بل كل امر يتبع خطة معينة ويمكن الارتداد بهِ الى اصله . ومعنى هذه السيكولوجيا الجديدة ، نفي حرية الارادة . فصدم ذلك المصلحين المؤمنين بامكان تغيير السلوك الانساني . الاَّ ان فرويد يذهب ، الى ان النفس فيها مراقبون ، يشرفون على تنفيذها ، فخفف ذلك من وقع الصدمة الاولى على المؤمنين بالقواعد الادبية . ثم توسع في هذا الرأي فوضع نظرية الذات ego والذات العليا super-ego ، وهو موضوع سنعود اليهِ في فقرة اخرى من هذه المحاضرة

العقل الباطن والقسام

اما من الناحية المنطقية ، فني امكاننا ان نثبت وجود العقل الباطن اثباتاً قاطعاً لكل ريب ، فالمصاعب التي تحفُّها وتتخطاها ونحن اقل ما نكون تفكيراً فيها ، والكلمات والالفاظ التي تقف عليها كأنها هابطة من عوالم الاحلام ، وغيرها وغيرها من شؤون الذاكرة ، تبين جميعاً ان في النفس ناحية غير واعية

اما مكانة الناحية غير الواعية في العقل ، فيمكن اثباتها بنتائج التنويم المغنطيسي ، وبضروب العلاج التي تجري وفقاً لقواعد التحليل النفسي ، وبطبيعة ما تحتوي عليه من الاشياء ، كشؤون الجنس ، والغرائز ، والذكريات ، والاختبارات ، والعادات . فالقسم الباطن من العقل هو القسة البارزة المعرضة للنور ، والجانب السابق للوعي منها ، هو الممر الصغير الذي يفضي اليها ، واما الجانب الاكبر فهو الجانب الباطن ، وهو في ظلام دامس

ان الجانب الباطن من العقل ، يعرف في الطفل باسم « الهوية » مشتقة من « هو » ثم تتميز اجزاؤه فيظهر فيهِ الجانب الجنسي وهو الذي يدعوه فرويد « الشهوة الجنسية : ليبيدو » ثم تنقسم هذه الشهوة الى الذات التي ترتفع من اغوار النفس الى قنة الوعي ، ولا يلبث أن تتميز الذات نفسها فيظهر فيها ما يعرف بالذات العليا super-ego وهي على اتصال دقيق بالشهوة الجنسية . فالذات العليا ، جانبٌ منها في العقل الباطن. ثم ان الغرائز من اجزاء القسم الباطن في العقل ، وقد عرَّفها فرويد تعريفاً غريباً ولكنهُ يثير الاهتمام لانهُ مخالف لتحديد الداروينيين لها . بل أن تحديده

مناقض لفكرة التطور . فالغرائز في نظرهم نوعان غرائز الحياة وغرائز الموت . أما غرائز الحياة فترتدُّ الى الخلايا الجرثومية ، وأما غرائز الموت فترتدُّ الى الخلايا البدنية . . . .

وخلاصة ما تقدَّم من البحث ، أن العقل الباطن يشتمل على الشهوة الجنسية والذات والذات العليا والغرائز

وثمة نزاع دائم في النفس بين هذه الاقسام وبينها من ناحية والحقيقة الخارجية من ناحية أخرى . فالذات والذات العليا تحافظان على القواعد الادبية . أما النوازع الغريزية والشهوة الجنسية فبدائية لا تجري على منطق وتطلب دائماً اشباعاً بدائياً

الكبت في نظر فرويد

وكذلك تعرَّض الافكار دائماً للكبت . والكبت ، في نظرية فرويد ، اكثر اجزائها تعرضاً للنقد ، ولا سيما ما كان منهُ متعلقاً بالجنس اي الشهوة الجنسية . وقد سعى اصحاب جميع المذاهب التي نشأت من تعاليم فرويد الى حذف العنصر الجنسي من نظريته . فالشهوة الجنسية في نظرهم ليست نشاطاً جنسياً فقط بل هي نشاط الحياة او ما يدعوهُ الفيلسوف برجسون «الدافع الحيوي»

والواقع أن اكثر الاجزاء في نظرية فرويد تعرضاً للنقد ، ليس الجزء الخاص بالجنس ، ولكنهُ الجزء الخاص بتقسيم الشهوة الجنسية الى مناطق شهوانية تتطلب اشباع ما فيها من نهم . وهي ثلاث مناطق في الفم والاست واعضاء الجنس . فالطفل يكون الميل في المنطقة الاولى بمصّ ما يقع لهُ . والثاني يمدّ يده الى الاجزاء السفلى وهذا الدور يمتدُّ الى السنة الخامسة من حياته . أما المنطقة الثالثة فلا شأن لها في حياة الطفل . وقد عنى الاستاذ فلوجل احد مؤيدي فرويد ونظريته بوضع كشف طويل اثبت فيه الحاسن والمساوي التي تنتج عن اكتفاء النزعة الفطرية الخاصة بالمنطقة الثانية او عدم اكتفائها اي كبتها

وإلى كبتها يرجع في تفسير ما يعرف « بمركَّب اوديب » . وهو اساسي في نظرية فرويد . واسم هذا المركب منزع من اساطير اليونان الوارد فيها ان « اوديب » كان يعشق امه . فبعد السنة الخامسة من حياة الطفل ، ثم في دور المراهقة ، تستيقظ النزعة الخاصة باكتفاء اعضاء الجنس ، وتقترن بالميل الى ترديد ما كان الطفل يفعله وهو طفل اي قضم اظافره مثلاً . ولكن الشهوة الجنسية متصلة بالذات العليا . فيحاول ان ينشيء شخصية جديدة مستقلة ، اي فصل النفس عن اهواء الطفولة . فالمريض العصبي هو من لا يتم فيهِ هذا الانفصال على أوفى وجه ، فيعجز عن مواجهة الحقيقة ، او تكون الذات فيه او الذات العليا غير ناضجة فتتصف اما بشدة التساهل واما بشدة التصلب والجمود . وعندئذٍ يكون مصير النزعة الجنسية فيه الانحياء الى شيء

خارج النفس يغيره بحبه . فاما ان يمنع هذا الانجاه ، واما ان يصدّ ، واما ان يحول الى مثل عليا فيتسامى ، واما ان ينكس الى الداخل . فاذا منع اصيب صاحبه بالهستريا ، واذا صدّ فانه يتحول من اختيار الزوج الى حب الام مثلاً وهو مركب اوديب ، او الى حب النفس على نحو ماكان « نارسيس » يفعل في اساطير اليونان . او يفضي الى الخيالات والاهواء . وهذه تفضي بدورها الى النورستينيا . فاذا انكس الى الداخل وانطوى في العقل الباطن نشأت الحالات العصبية التي سببها الكبت

وهذا يفضي بنا الى القول بأن « الكبت » من اهم الاركان التي تقوم عليها نظرية فرويد

وقد وضع العلاّمة فالنتين كتاباً نفيساً في علم النفس الحديث اي الخاص بالعقل الباطن واسمّاه بفصل جامع في الكبت قال فيه ان الكبت شيء عادي في حياتنا اليومية . اذ يصرف كلٌّ منا بطبعه عما لا يرضيه او يسره . بل اننا لنتحول قصداً عما لا نريد . وهذا هو الكبت المقصود وفائدته عظيمة لانه ينقذنا من كثير من الالم والمشقة . ولكن اهم من الكبت المقصود ، الكبت غير المقصود وهو نوع الكبت الذي يكثر في سني الطفولة . فنحن اذا تنازعتنا رغبتان متناقضتان ، فقد نكبت احداهما عن قصد او عن غير قصد ، فتختفي الى حين . فنظن ان تلك الرغبة قد قضت ومانت . فاذا كان الكبت تامّاً ، والنزاع عنيفاً ، والجسم سريع التأثر ، فتلك الرغبة لا تموت ولكنها تكمن فقط وهي تقرع الباب باستمرار تبغي الدخول الى نطاق الوعي ولولم يعلم المرء ذلك

والقول « بالنضال » على النحو المتقدم أساس جميع المذاهب الجديدة في علم النفس . فالعلاّمة ادلر يقيم وزناً كبيراً لهذا الكبت في عهد الطفولة . ولكنهُ لا يسنده الى المسائل الجنسية ، بل الى « ارادة القوة » او نزعة تأييد الذات . والاستاذ يونج Jung يقسم النضال قسمين ، احدهما يتجه الى الخارج والآخر الى الداخل . ففي الحالة الاولى يكون المرء « خارجي النزعة » extrovert متصفاً بصفات الفعّالين كالقواد ورجال الاعمال . وفي الحالة الثانية ، يكون « داخلي النزعة » introvert متصفاً بصفات الانطواء على النفس والتأمل . وقد عمد في كتابه العظيم الى وضع تقسيم لهذين النوعين من الشخصية وما يتفرع عليهما ووصف كل منها . وقد اشرت الى نوعين فقط هما الخارجيّ النزعة والداخليّ النزعة لان جميع اصحاب المذاهب الجديدة في علم النفس مجمعون عليهما . وهذا لا يمنع ان هناك انواعاً بين بين

الاحلام وتفسيرها

ثم ان ناحية الاحلام من اهم الاركان التي تقوم عليها نظرية فرويد . ولا يسعنا ان نمر بها مرّ الكرام . أما التعريف الذي وضعهُ فرويد للحلم فهو تعريف غريب . قال : « الحلم عَرَضٌ مرضي يمتاز بظهوره في جميع الاصحاء »

فالحلم في نظره يمثل اشباع رغبة لم يتح لها الاشباع من قبل . وفيه معنيان ظاهر وكامن . أما المعنى الظاهر فهو حماية النائم من صدمة الحقيقة . ومهمة المحلل النفسي ان يتوصل الى فهم المعنى الكامن في الحلم . ذلك ان العقل الباطن يتوصل بوسائل متعددة لاخفاء المعنى الصحيح الذي ينطوي عليه الحلم ، ولذلك عني المشتغلون بهذه الناحية من التحليل النفسي بوضع معجم لتفسير الرموز التي تطرأ في الاحلام

ولنضرب على ذلك مثلاً سيدة تعالج بالتحليل النفسي ، فتروي لمعالجها انها حلمت « ان « مدوزن » البيانو جاء البيت ليضبط أوتارها وانها رأته في الحلم مشغولاً بجمع بزور من داخل البيانو » . فهذا الحلم عند تحليله بطريقة فرويد يبين أولاً ان البيانو ترمز الى الرغبة في التخلص من هم مقلق وثانياً ان البزور تدل على « الجنس » . ومعنى الحلم الرغبة في التخلص من هموم جنسية . وعلى هذا النمط يرمز البيت في الحلم الى امرىء والملوك والملكات الى الآباء والامهات والماء الى الولادة والرحلات الى الموت والرقم ٣ الى الاعضاء الجنسية في الذكر وهكذا

ومن شاء المزيد فليراجع مطوّل فرويد في الاحلام

مرضى الاعصاب

اما وقد تكلمنا على الكبت والاحلام فلا بدّ من ان نعرّف المريض العصبي (Neurotic) من أشهر وجوه النقد الموجهة الى نظرية فرويد قولهم انها تعالج الشاذ فيردّ فرويد على هذا القول بأنهُ من الخطاء وصف المريض العصبي بأنهُ شاذ . بل هو امرؤٌ ساءت ملاءمتهُ للوسط الذي يعيش فيه . فالمرؤ السويُّ هو من تغلّب على مصاعب الصغار وأهوالهم وخيالاتهم ، ولكن المريض العصبي لا يزال اسيراً لها . ونحن جميعاً مصرّضون الى حدٍّ ما ، لطائفة من هذه الرغبات والنوازع التي تساور الاطفال ، ونتيجة النضال رهنٌ بعوامل مختلفة كالبيئة والوراثة والخبرة السابقة وتأثير العالم الخارجي . وفرويد يرى ان النضال بين هوية الطفل والذات تحدث ضروباً من الوسواس والقلق . أما النضال بين الذات والذات العليا فيفضي الى مرض الانحطاط الجنوني . وأما الامراض العصبية الحادة الجنون فنتيجة النضال بين الذات والحقيقة

هذه الحالات المرضية ، تشمل من الوجهة الطبية والعلمية اربع طوائف هي اولاً — النورستينيا : وهي نوعان لا يجب ان يخلط احدهما بالآخر . احدهما ناشيء عن الاعياء الجسماني المكتسب من الافراط في العمل وانهاك القوى والتسمم الحق من بؤرة ما . والثاني سببهُ اعياء ناشيء عن تركيب البنية . والمثل عليه امرؤ ذو نزعة داخلية ، تسير عليه ملاءمة نفسه لما حوله فينطوي عليها ، فيصاب بالنورستينيا من النوع الثاني ، ويزعم انهُ لا قبل لهُ بالحياة ويتعلل بشتى كاذب لاثبات هذا

ثانياً — الهستيريا — والذي يصاب بها امرؤ من اصحاب النزعة الخارجية جمّ النشاط ولكن تيار نشاطه يصدُّ ، فيميل الى الانعزال ، ويتخذ موقفاً سلبياً ، فيوكّل بكل ما يحدث لهُ

ثالثاً — الهموم — وهذا النوع على جانب كبير من خطر الشأن والذريع وهو ناشيء عن الحضارة ، لكثرة ما تفرض به سبيلنا من اعمال نريد ان نقوم بها فنعجز ، ومن رغبات نبغي ان نشبعها فيتعذر ذلك علينا . والعنصر الاهم في هذه الحالات العصبية هو الخوف . ومن الامثال التي تضرب على هذه الحالة رجل يتزوج من يحب ولكنهُ يساورهُ خوف انهُ عاجز عن القيام بوظيفة الزوج فيقلقهُ ذلك ويهمهُ . وسرّ هذه الحالة من الوجهة الطبية في الكظرين لان المصاب بها مصاب بزيادة السكر في الدم . اما في الهستيريا فالحالة وثيقة الصلة بمفرزات الغدد الصمّ

رابعاً — الوسواس ، وهو الميل الى ترديد شيء واحد والتفكير بهِ دون غيره وهو على الاكثر ناشيء عن تركيب البنية

العلاج وصوابه

فمهمة المعالج بالتحليل النفسي ، هي التنقيب عن هذه الخاوف الكامنة المطوية على الاكثر في العقل الباطن . فاذا اخرجت من مكمنها وعرضت للنور فقدت اثرها السيء . والعلاج النفسي ليس من الاساليب التي تسهل ممارستها . بل هو على جانب كبير من الخطر . وقد انصرف المعالجون عن التنويم المغنطيسي ، وعمدوا الى « التداعي الحرّ » . « والتداعي الحرّ » يقتضي جلسات متعدّدة ، وفي هذا الصدد ، لشخصية المعالج وخبرته شأن كبير

والعلاج ثلاث مراحل . فالمرحلة الاولى يسرد المصاب فيها سرداً حرّاً ما يمنّ لهُ ، وهو جالس في غرفة معتمة ، والمعالج بعيد عنهُ ، فيغمض جفنيهِ ويسترسل في سرد خواطره وكذلك احلامه . وما على المعالج الاّ الاصغاء

وفي المرحلة الثانية تنكشف للمصاب أحلام الطفولة وأدوارها وهي اصعب المراحل الثلاث وأشدها خطراً اذ فيها تتحوّل عناية المصاب الى شخص معالجهِ . فاذا ترك وشأنهُ وهو في هذه الحالة ، تمرّض لخطر عظيم وقد يصير الى الانتحار

وفي المرحلة الثالثة يقنع المعالج مريضهُ بان هذه الاوهام والخيالات والوساوس من اشباح الماضي ولا صلة لها بالحاضر ، وعند ذلك يتحوّل الترديد في نفسهِ الى مجرّد ذكرى

وفي هذا الشفاء

وسواء اسلّمت بكل ما تنطوي عليهِ نظرية التحليل النفسي ام لم تسلّم ، فلا بدّ من الاعتراف بان جانباً منها على الاقل ذو قيمة حقيقية